الحكمة في شعر الصعاليك (دراسة تحليلية)

د. عمار المسعودي[1]

المقدمة

تعد الحكمة من الموضوعات المهمة في تاريخ الأدب العربي لما يرافقها من معرفة تشي بمدى تطور الذهنية المنتجة للأدب والفن وسائر الفعاليات الثقافية لأمةٍ ما، ولاسيما إذا ما كانت تلك الحكمة تقترن بمجموعة من الشعراء لابد لدارس الأدب من التعرف عليهم بشكل عميق لما لهم من معطيات تفارق التقاليد والأعراف القبلية، هذه المجموعة تعرف بالصعاليك، الذين أنتجوا حكمة أدبية طريفة ومختلفة، هذه الطرافة وذلك الاختلاف جاء من مفارقة ومباينة لأعراف عامة منصوص عليها .

هذا الاختلاف وتلك المباينة في إنتاج الحكمة ربما يضفي على هذه الدراسة أهمية خاصة، مما شكل باعثاً في تناول هذا الموضوع بالدرس .

وتبعاً لطبيعة المادة المدروسة فقد قسم البحث على ثلاثة مباحث سبقها تمهيد في ثلاث فقرات كانت الأولى في التعريف بالحكمة في اللغة والاصطلاح فيما عالجت الفقرة الثانية مفهوم الصعلكة والصعاليك وكانت الفقرة الثالثة في الجذور الاجتماعية للحكمة في شعر الصعاليك أما المباحث الثلاثة فقد خصص الأول منها لعرض حكمة الخلاص من الجوع في شعر الصعاليك وكان المبحث الثاني خصص لدراسة حكمة المروءة فيما تناول المبحث الثالث حكمة النجاة من الموت والإغارة .

وخلص البحث الى خاتمة حاولنا إدراج أهم ما توصل البحث إليه وقد عولجت فقرات البحث على وفق المنهج التحليلي، فقد التزم الباحث بما تنطق به النصوص ثم محاولة تحليلها واستخراج ما تتضمنه من نتائج دون تعسف، نسأل الله التوفيق في عملنا .

التمهيد : الحكمة في اللغة والاصطلاح :

أولاً : الحكمة لغة واصطلاحاً :

الحِكمة لغةً : مرجِعُها إلى العَدْل والعِلْم والحِلْم، ويقال أحْكَمَتْهُ التجاربُ إذا كان حكيماً . وأحْكَمَ فُلانٌ عنِّي كذا أي : منَعَهُ، ومن ذاكَ الحَكَم وهو المنع من الظلم، والحكمة هذا قياسها لأنها تمنع من الجهل، والمُحكَّم : المجرَّب ؛ المنسوب الى الحكمة.

ومن هذا المعنى وصف الله سبحانه وتعالى بأنه أحكم الحاكمين ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ .[2]

واستحكم الأمر : وثق، واحتكم في ماله، إذا جاز فيه حكمه . والاسم، الحكومة والأحكومة[3] قال الأعشى[4] :

١- الكلية التربوية المفتوحة، كربلاء.

٢- - (سورة هود، الآية ٤٥)

http://abu.edu.iq

ولمثلِ الّذي جمعتَ لريب الدّهر يـــأبى حكومـــةَ المقتـــال

أي لا تنفذ حكومة من يتكلم عليك من الأعداء . والمقتال : المفتعل من القول . والتحكيم : قول الحرورية[٥] : (لا حكم إلا الله) وحكمنا فلاناً أمرنا أي : يحكم بيننا وحاكمناه الى الله : دعوناه الى حكم الله . ويقال عني أن يسمى رجل حكماً[٦] .

وحَكَمَة اللجام : ما أحاط بحنكيه، سمي به لأنها تمنعه من الجري . وكل شيء منعته من الفساد فقد حكمته، وحكمته وأحكمته قال جرير(من الكامل)[٧] :

أبـني حنيفـة أحكمـوا سـفهاءكم أنـي أخـاف علـيكم أن أغضـبا

وتقترب تقليبات (حـ . كـ . م) بعض الشيء من معنى حكم وهي على النحو الآتي : محك : التمادي في اللجاجة عند المساومة والغضب ونحوه وتماحك البيعان ؛ وبهذا تكون هذه اللجاجة في حاجة ماسه الى المسك والحكم .

حمك : من نعت الأدلاء تقول : حَمَكَ يَحْمك وهذا المعنى هو الأقرب الى الخبرة والحكمة .

كمح ردَّ الفرس باللجام، وهو الأقرب لمادة حكم كونه يصرح في الرد والمسك والمنع[٨] .

وقد تطلق الحكمة على معنى النبوة وعلى القرآن أو التكاليف الشرعية المرادة من العباد[٩]، قال تعالى : (ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِ) [١٠].

أما الحكمة اصطلاحا : فإنها (علم يبحث فيه عن حقائق الأشياء على ماهي عليه في الوجود بقدر الطاقة البشرية، فهي علم نظري غير آلي..)[١١] .

والحكمة بهذا المعنى هي الفلسفة عينها، أي معرفة الأشياء بأفضل العلوم، بمعنى آخر إن الحكمة تمثل الغاية في العلم والتفقه، ووضع الشيء في موضعه، وهي إحدى الفضائل الأصلية عند فلاسفة اليونان ثم أطلقت على العلم مع العمل، والحكمة صفة الحكيم وهي كذلك الكلام الذي يقل لفظه ويجل معناه، والحكميون هم الفلاسفة[١٢] .

ومثال الحكيم كان المثل السامي الأعلى في العصور القديمة، ومن أهم ما يميزه العيش بانسجام مع العالم وكأن لكل قوانين الكون صدى في ذاته، وبهذا عدت الحكمة مفهوماً أخلاقياً يدل على التوازن في الشخصية أي العفة والاعتدال في الرغبات، وبهذا المعنى فإن الحكمة تتعارض مع الأهواء[١٣] .

ومما تقدم نخلص إلى أن الحكمة هي نظرات الإنسان في الحياة وتصرفات من فيها، وما فيها تستقى من تجارب الآخرين، وهي كذلك تجارب شخصية يتم تعميمها بفعل أثرها الخالد ثم أنها ثمرة تجارب طويلة

٣- . ينظر : كتاب العين : ١٢٧ ومعجم مقاييس اللغة ولسان العرب : ٩٥١/٢ .

٤ - . شرح ديوان الأعشى : ١٩٦٩ ، والبيت في لسان العرب بهذه الصورة :

ولمثل الذي جمعت لريب الد دهـر يـأبى حكومـة المقتـال

ينظر : لسان العرب : ٩٥٢/٢.

٥- .الحرورية : فرقة من الخوارج، نسبة إلى حروراء، قرية بالكوفة كان بها أول تجمع مسلح لهم . معجم لغة الفقهاء، محمد قلعجي، ط٢، ١٩٨٨م : ١٧٩ .

٦- . ينظر : لسان العرب : ٩٥٢/٢ .

٧- . ديوان جرير : ٤٧ .

٨- . ينظر : كتاب العين : ١٢٩ .

٩- . ينظر : القاموس المحيط : ٣٠٩ .

١٠- . سورة الإسراء، الآية : ٣٩ .

١١- . كتاب التعريفات : ١٥٤ .

١٢- . ينظر : المعجم الفلسفي : ٤٩١/١ .

١٣- . ينظر : قاموس الفلسفة : ١٩٢ .

http://abu.edu.iq

وفطنة ونظر ثاقب وبصيرة نافذة بالناس وأخلاقهم وبالماضين ومصائرهم وتأمل في سعي الإنسان وغايته ونهايته، ثم هي إحساس دقيق بالحياة[١٤] .

ثانياً : الصعلكة والصعاليك :

تصعلكت الإبل : خرجت أوبارها وأنجردت وطرحتها، ورجل مصعلك الرأس : مدورهُ . والتصعلك : الفقر، وصعاليك العرب، ذؤبانها وكان عروة بن الورد يسمى : عروة الصعاليك لأنه كان يجمع الفقراء في حضيرة فيرزقهم مما يغنمه[١٥] .

والصعلوك هو : الفقير الذي لامال له، وزاد الأزهري، ولا إعتماد ؛ وقد تصعلك الرجل إذا كان كذلك[١٦] .

ولقد تطورت لفظة الصعلوك فلم تعد تعني الفقير بل غدت تعني من يتجردون للغارات وقطع الطرق وبذلك يمكن تقسيم هذه الطائفة على ثلاث فئات :

١. الخلعاء الشذاذ، المطرودون من قبائلهم لكثرة شغبهم مثل حاجز الأسدي وقيس بن الحدادية وأبو الطمحان القيني .

٢. أبناء الحبشيات السود، المنبوذون من آبائهم خشية العار مثل السليك بن السلكة، وتأبط شراً، والشنفرى، وعنترة بن شداد في أول أمره .

٣. المحترفون للصعلكة ممن لم ينضموا إلى الفئتين السابقتين وقد يكونوا أفرادا مثل عروة بن الورد وقد يكونوا قبيلة برمتها مثل : هذيل وفهم[١٧] .

وأهم ما يميز شعر الصعاليك نبرة الرفض الواضحة لمظاهر الفقر والجوع والتمرد على الأغنياء وأعراف القبيلة التي تميز بين الغني والفقير، ويمكن أن نلاحظ أن الصبر وشدة التحمل سمة يكاد يشترك فيها الصعاليك[١٨] كذلك امتازوا بالعطف على الفقراء والنجدة والمساواة بالغنائم والمفاخرة بغاراتهم على القبائل الأخرى[١٩] !

إن شعر الصعاليك صدى للواقع المعيش فهو صورة صادقة لنفسيات من ينتمي لهذه الطائفة وأعمالهم وأخلاقهم وقد تميز بوحدة الموضوع فقلما نجد مقدمات غزلية أو طللية أو وصفية لأن معظم أشعارهم كانت مقطعات، لا قصائد فلم يألفوا التمهل والتنميق والتروي، ومما أمتاز به شعرهم، الإكثار من مخاطبة الزوجة ولعل ذلك دليل على الغربة التي كانوا عليها[٢٠] .

وفي نص لعمرو بن براقة الهمداني نرى أن معنى الصعلكة ينتقل من دلالة الضعف إلى دلالة أخرى، تتضمن الروح المتمردة والنفس الكبيرة التي تحمل بين جوانحها طاقات وجودية، تحاول إثباتها بعد أن حطمت القبيلة كل جسور الاتصال بينها وبين الصعاليك ؛ لذا صار التمرد سمة لهذه الأرواح الثائرة المنفلتة من أسارها لتخرج "الصعلكة" من دائرة الذل والاستكانة والفقر إلى دائرة الثورة والغزو والسلب والإغارة . قال عمرو بن برّاقة الباهلي[٢١] :

١٤- . ينظر : موازنة بين الحكمة في شعر المتنبي والحكمة في شعر ابي العلاء : ١٨ ، وينظر الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه ٢٤٥١/٤١٢، وينظر مصادر الشعر الجاهلي : ١٦٥ ، وينظر الحكمة في شعر المتنبي : ٩ .

١٥- . ينظر : لسان العرب : ٢٤٥٢/٤ .

١٦- . ينظر : م.ن. : ٢٤٥١/٤ .

١٧- . ينظر : المعجم المفصل في الأدب : ٥٨٥/٢ .

١٨- . ينظر : م.ن : ٥٨٦/٢ .

١٩- . ينظر : الحياة العربية من الشعر الجاهلي : ٣٠٦ .

٢٠- . ينظر : المرجع نفسه : ٣٠٦ .

٢١- . الأمالي : ١٢١/٢ ، ومنتهى الطلب من أشعار العرب : ٣١٥ مع إختلاف يسير في الألفاظ.

http://abu.edu.iq

تقــول ســليمى لاتَعَــرّضْ لتلفــةٍ ... وليلـك عـن ليـل الصـعاليك نـائم
وكيـف ينـام الليـل مـن جـل همـه ... حسـام كلـون الملـح ابـيض صـارم
ألم تعلمـي ان الصـعاليك نـومهم ... قليــل إذا نــام الخلــي المســالم

فالصعلكة إذن هي الإنجراد والضمور، وفي المفهوم اللغوي يكون معناها الفقر الذي يجرد الإنسان من ماله ويظهره ضامراً هزيلاً ومن إضافة الأزهري ولا إعتماد، يكون الصعلوك : هو الفقير الذي يواجه الحياة وحيداً، فالمسألة إذن ليست فقراً وحسب، بل هي إغلاق أبواب الحياة وسد جميع المسالك أمام هذه المجموعة .

ثالثاً : الجذور الإجتماعية للحكمة في شعر الصعاليك

تعد البنية الاجتماعية القبلية، وما فيها من طبقية وتمييز عنصري من أهم العوامل التي أسهمت في تبلور هذه الظاهرة وما أفرزته من سحق وتهميش للفقراء والمعدمين من تلك الطبقات الأقل منزلة من طبقة الأحرار والأسياد، الذين يستحوذون على كل شيء، بما في ذلك الدفاع عن القبيلة، وتسجيل الوقائع والأيام، المقتصر على السادة والأحرار دون سواهم[٢٢] . قال السليك بن السلكة[٢٣] :

لا يكشـف الغمّـاء إلا ابـن حـرة ... يـرى غَمَـرَاتِ المـوتِ ثـم يزورهـا

إذن ظلت الطبقية والعنصرية حجراً لتحطم عليها آمال شريحة واسعة من العبيد والموالي والخلعاء الذين شكلوا الأساس لقيام ظاهرة الصعاليك . فالسليك بن السلكة كما يصرح أنه شاب رأسه مما تقاسيه خالاته من ضيم وهوان ومذلة ويعجز لفقره عن إنقاذهن[٢٤] .

لذا فإن الدوائر ظلت تزداد ضيقاً على هؤلاء الأغربة[٢٥] المنسوبين إلى أمهاتهم، وهذا أول تحلل من سلطة الأب الذي هيأ التحلل من سلطة القبيلة . وهيأ للأفراد المنتمين لهذه الفئة المحرومة أو تلك الهروب بذاتها لتحققها بعيداً عن القبيلة المزدحمة بأبنائها البيض الأحرار والأسياد . لهذا يمكن أن نسجل بناءً على ما تقدم ظاهرة التحلل من الشخصية القبلية، وذلك لفقدان الصعاليك، التوافق الاجتماعي بينهم وبين قبائلهم ؛ مما افقدهم الإحساس بالعصبية القبلية .

إن على المتصدي لأي جانب من جوانب شعر الصعاليك فنياً كان أم موضوعياً . ملاحظة هذا الانفصال وما يأتي به من معطيات مخالفة لقوانين القبيلة وأعرافها .لذا لا يمكن أن ننظر إلا بعين مختلفة لأية ظاهرة تتصل بهذه الجماعة .

إن الحكمة التي نحن بصدد تقصيها عند الشعراء الصعاليك، لابد أن ننظر إليها خارج سياق المتعارف عليه في بنية المتن السيادي، إذ لا تخرج عن كونها خبرات للحفاظ على المنظومة العرفية القبلية وإدامتها محافظة على مصالح الطبقة العليا، بقيم تربو على التقديس بمحاكاتها قيم القبيلة العليا فهي لا تقبل ولا تستساغ . إلا ممن يمتلكون السلطات السيادية والمعرفية، لذا يمكن أن يكون إنتاج الحكم من عند طبقة أعرض وأوسع، ثم يتم قصرها على مجموعة حرصاً منهم على عدم تبديدها خارج قبضة الطبقة العليا، إذ لم يتجاوز إنتاج الحكمة في عصر الإسلام أسماء من مثل "لقمان الحكيم وزهير بن سلمى، ولبيد بن ربيعة وطرفة بن العبد واحيحة بن الجلاح وأمية بن الصلت"[٢٦] .

٢٢- . ينظر : الحياة العربية من الشعر الجاهلي : ٢٣٠، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي : ١١١ .
٢٣- . م.ن : ١١٥ .
٢٤- . ينظر : الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي : ١١١ .
٢٥- . سموا كذلك تشبيهاً لهم بذلك الطائر المشؤوم في لونه الأسود م . ن : ١١١ .
٢٦- . ينظر : الحكمة في شعر المتنبي : ٢١، وينظر: الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه : ٢٨٧.

http://abu.edu.iq

إن تخطينا المتن السيادي والقبلي باتجاه الهامش الذي يملأه الصعاليك حياة منفلتة من القوانين والأعراف ليطلعنا على عالم آخر وقناعات أخرى يستبدل بها الصعلوك ما حطمه أو كسره من قيم القبيلة .

إن ظروف الصعاليك القاسية وما لاقوه من تهميش وامتهان وجوع ، لهي المنتج للحكمة فهناك من يرى ((أن أصل الحكمة مصائب الدهر ، ونكبات الحياة فالجرح النازف والألم اللازم ، يولدان الشعور باليأس فتكون المكابدة اللاهثة خلف العلة فتنشأ الحكمة التي تترجم الحقائق وتعالج التجارب لتخلق من الفشل والمصائب والآلام ، وتفرض على البشر ، تتبع الأسباب الرادعة والوسائل المعينة وتكون الحكمة الصائبة والفكرة الهادفة))[٢٧] .

لذا نجد أن ظروف الصعاليك القاسية قد أنتجت شعراً يفيض حكمة تتضمن تجاربهم ورؤاهم ومكابداتهم ((فالحكمة هي ثمرة تجارب طويلة وفطنة ونظر ثاقب وبصيرة نافذة بالناس وأخلاقهم ثم إحساس دقيق بالحياة))[٢٨] .

إن حكمة الصعاليك وجدت مختلفة ومفارقة للحكمة القارة في قوانين القبيلة وأعرافها ؛ وذلك للفرق والمباينة بين ما يعيشه الصعلوك وما يعيشه الحر في القبلية المدحية لذا جاءت حكمهم مباينة وحكيمهم مخالفاً كونه ((الخبير بطبائع النفوس لأنه يعبر عما اعتلج فيها وعجزت هي للتعبير عنه ، ومما يزيد الناس قبولاً للحكمة وتمسكاً بها ، توافقها والمشاعر الإنسانية وأن تكتسب صفة التعميم في المدلول والاتجاه))[٢٩] .

ولهذا فإن الاهتمام بالحكمة وتدوين الأفكار الذهنية الصالحة لكل زمان ومكان قد شغلت الشاعر الصعلوك ، حتى جعلوها متصدرة على خلاف القصيدة القبلية الملتزمة بالمقدمة الطللية وما يتلوها من تقسيمات فنية ، وكأنهم جادون في كتابة أفكار جديدة أو تاريخ بديل لما تحطم على أياديهم من بنى إجتماعية وثقافية وفنية خلّفوها وراءهم ظهرياً .

لذا نجد عروة يفتتح شعره قائلاً :

إذا المرءُ لم يبعثْ سَواماً ولم يَرُحْ ... عليه ولم تَعْطِفْ عليه أقاربُه
فلَلموتُ خيرٌ للفتى من حياتِهِ ... فقيراً ومن مولى تدبُّ عقاربُه[٣٠]

أو الشنفري في قوله :

ولولا اجتناب الذامّ لم يَبْقَ مَشْرَبٌ ... يَعَاشَ بِهِ إلا لديّ ومأكلُ[٣١]

إن حكمة الصعاليك المبثوثة في تجاربهم الشعرية يمكن أنْ ينظر إليها من خلال ثلاثة محاور تنتج الحكمة من إطارها وهي :

المبحث الأول : حكمة الخلاص من الفاقة والجوع

إن أخبار الشعراء حافلة بالحديث عن فقرهم ، فكل الصعاليك فقراء حتى سيدهم عروة بن الورد[٣٢] فالرواة يذكرونه أنه كان فقيراً صعلوكاً مثلهم إذ نجده يقول :

ذريني للغنى أسعى ، فإني ... رأيت النّاس شرّهم الفقيرُ

٢٧- . النقد الأدبي الحديث : ٣٦٢ .
٢٨- . الشعر الجاهلي ، خصائصه وفنونه : ٢٨٧ .
٢٩- . موازنة بين الحكمة في شعر المتنبي والحكمة في شعر ابي العلاء المعري : ٢٠ .
٣٠- . ديوان عروة : ٣٥ .
٣١- . ديوان الشنفري : ١٠٦ .
٣٢- . الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي : ٢٨ .

http://abu.edu.iq

وأدنـــاهَم وأهـــونَهَم علـــيهم وإن أمســـى لـــه حَسَـــبٌ وخـــيرَ
يباعـــده القريـــبَ وتزدريـــهِ حليلتَـــه وينهـــرَهُ الصّـــغيرَ
ويَلقـــى ذو الغِنَـــى ولـــهُ جَـــلالٌ يكـــاد فـــؤادَ صـــاحبِهِ يطـــيرَ
قليـــلٌ ذنبَـــهُ والـــذّنبَ جَـــمٌ ولكـــن للغنـــى ربٌ غَفـــورَ[٣٣]

يسجل عروة بن الورد فلسفته إزاء ما يراه من مظاهر اجتماعية عاشها حُرًّا وليس عبدًا أو مولىً أو خليعًا لذا تصبح دعوته للثورة ممثلة لإحساس هذا الثائر بما يعانيه المضطهد المعدم . فهو لا يطلب الغنى لذاته، بل لحفظ الكرامة الإنسانية بعد أن أصابها الهوان والدونية ومباعدة الأقرباء وازدراء الخليلات، ونهر الصغير، كل هذا يحمل بذور فراق ينزع نحو تحطيم بنية المجتمع التي أسها الحفاظ على هذه القيم ؛ ويطلق عروة بن الورد صرخته الداعية للحرب والغزو، ويجهر بدعوة تتضمن حكمة مفادها أن الموت خير من حياة في ظل الجوع والهزال إذ قال :[٣٤]

أقيمـوا بـني عمّـي صُـدورَ رِكَـابِكم فـإن منايـا القـوم خـيرٌ مـن الهَـزْلِ

ونجد في نص شعري آخر لعروة، إن الجوع والفقر صارا هاجسين محركين لنيل الغنى . إذ يفهم عروة ويدرك كل الإدراك أن المال سرٌ على أساسه تقام وتقيم كرامات الإنسان ؛ لذا لم يعبأ بشيء يثني قراره في طلب المال وبلوغ الغنى لحفظ الإنسان حينما تلم به الملمات إذ قال[٣٥] :

دعـيني أطـوفَ في الـبلادِ لعلّـني أفيـدَ غنـىً فيـه لـذي الحـقِ محمـلُ
ألـيس عظيمـاً أن تلـمّ مُلمّـةٌ ولـيس علينـا في الحقـوقِ مَعَـوّلُ
فـإن نحـن لم نملِـكْ دفاعـاً بحـادثٍ تلـمّ بـه الأيـامُ فـالموتُ أجمـلُ

عروة هنا ساع بدلالة "أطوف" خارج المكان ليس له مستقر منفلتاً من قبضة لائمته، وهي تحاول جاهدة حبسه في دائرتها الذاتية ؛ لكنه يأبى إلا أن يكون مشروعاً جماعياً ؛ ليجيب عن اسئلة ذاته ووجوده المبني على أساس إغاثة الآخر (ليس علينا في حقوق معول) (لم نملك دفاعاً بحادث) . إن تأثير النص الشعري غير متأت من اللغة وإمكانات انزياحها وعدولها أو شحنها بمعان جديدة، بل من عمق ما تشكله أسئلة الوجود ومن حشده لتضادات تخلق مسافات توترها على أساس التواجد الحي والشخصي للكائن وهو يتفاعل داخل دائرة الكون فيبدأ منه الفعل فهو متعجب ومستغرب أن يستغاث به ولا يغيث وما بين ذلك تكمن تجربته الشعرية المرتبطة " بتجربة الخروج جذرياً وبالموقف الثوري لتصبح أحد تجلياته البارزة، فهي تستقي شعريتها من منابع الشعرية التي تختفي وراء الموقف الثوري "[٣٦] .

وفي سياق آخر نجد أن الشنفرى يبث في نسيج لاميته إرادته المتحدية التي ترسم الإباء والصبر على الضيم والأذى من دون اللجوء إلى الإذلال والإهانة، وكأن سهم الموقف يهرب بالصعلوك من إذلاله في مجتمع متماسك بطبقاته حتى لا يترك من مسافة يحقق بها ذاته، إلى فرصته الواقعة خارج التقاليد والأعراف تلك التي يحقق بها أمله في كسب شخصي فردي يصبر عليه حفاظاً على ذات هربت لتحقق لها وجوداً خارج منظومة العلاقات الطبقية والعنصرية المذلة والمهينة إذ قال[٣٧] :

٣٣- . ديوان عروة : ١٩١ .
٣٤- . م.ن : ١٠٦ . ومنتهى الطلب من أشعار العرب : ٢٢٦ مع أختلاف في الألفاظ .
٣٥- . ديوان عروة : ٢٠٦ .
٣٦- . في الشعرية : ٤٥ .
٣٧- . الأمالي : ٢٠٤ .

http://abu.edu.iq

أديـمَ مطـال الجـوع حتـى أميتـه ... وأضرب عنه الذكر صَفحاً فأذهَلَ
واستفُّ تَربَ الأرض كي لا يَرى له ... علـيّ مـن الطـول امـرؤٌ متطـوّل
ولولا اجتناب الذام لم يبق مشرب ... يعـــاش بـــه إلا لـــدي ومأكـــلَ

ويكون الجوع حافزاً تتبناه النفوس الكبيرة وهي تسعى جاهدة لاجتياز واقعها المؤلم : فعروة يختار الموت على الحياة الذليلة وقال[٣٨] :

إذا المرء لم يبعث سواماً ولم يرح ... عليـه ولم تعطـف عليـه أقاربـه
فللمـوتُ خـيرٌ للفتـى مـن حياتـه ... فقـيراً ومـن مـولى تـدبُّ عقاربـه

ولأن الحكمة تعود في جوهرها الى تجربة ذهنية تستحضر للتعبير عن قضية وجودية وحياتية ؛ لذا يكون التركيز فيها منصباً على إظهار الأفكار جلية وبلغة سليمة سهلة .

المبحث الثاني : حكمة المروءة

إن جوهر الحكمة يكمن في قدرتها على رفع المستوى الإجتماعي ، ((فهي تحث على تحسين الأخلاق والزهد في الدنيا والقناعة بما تيسر من خبراتها ، فيتخلى الأفراد عن التناحر والتشاجر والتحاسد))[٣٩] .

فهذا عروة بن الورد يوزع جسده في أجساد طالبيه ويكتفي بالماء موفراً ما عنده لإطعام المحتاجين حتى صار شاحباً هزيلاً فقال[٤٠] :

أنـي امـرؤ عـافٍ أنـائي شِـرْكَةٌ ... وأنـت امـرؤ عـافٍ إنـاؤكَ واحـدُ
أتهـزأ مـني إن سمنـت وقـد تـرى ... بجسـمي مَـسّ الحـق والحـقّ جاهـدُ
أقسَـمَ جسـمي في جُسُـومٍ كـثيرةٍ ... وأحسـو قِـراحَ المـاءِ والمـاءَ بـاردُ

إن نص عروة يعتمد في إظهار الحكمة على وجود كيانين أحدهما يقف مواجهاً للآخر ، هذه المواجهة تخلق مزاجاً جدلياً في التلقي إذ يتأرجح النسغ الشعري بما يحمل من أفكار وحكم وتجارب ورؤى بين ذات الشاعر والآخر . وبهذا تخوض ذات الشاعر في مواجهة مع الآخر في قيمه وخلقه وعلاقته بالآخرين .

ويدافع تأبط شراً في إحدى قصائده عن كرمه واسرافه اللذين جلبا عليه كثيراً من اللوم فقال[٤١] : (من الطويل)

أعـــاذلتي إنّ اللّـــومَ مَعْنفَـــةٌ ... وهـــل مِتَـــاعٌ وان أبقيتَـــه بـــاقي

فالشاعر يحث على إنفاق المال لمن يستحقه من الفقراء والمحرومين فلا خير يرتجى بمتاع في الحياة مالم ينتفع به الآخرون .

إن حكمة المروءة في شعر الصعاليك كانت خلاصة لحياة نكدهم التي عاشوها في الصحراء ، وكانت أيضاً نتيجة تجاربهم القاسية التي مروا بها ، لذلك فليس من المستغرب أن نلمح فيها حرارة الانفعال ، وهذا واضح في ثنايا قصائد الشعراء والصعاليك . ولابد من التنبيه على إن تلك الحكمة تكون في أغلب الأحوال في نهايات القصائد . فهذا تأبط شراً وهو يرثي زميله في الصعلكة الشنفرى يبدأ بذكر الموت مبيناً نوع الميتة التي يجب أن يموت عليها الإنسان ، فلا بد أن يختارها بنفسه لتكون ميتة عز وشرف ، ثم يتدرج الى ماعليه نفسه من مروءة وكرم نفس[٤٢] قائلا [٤٣] :

٣٨- . ديوان عروة : ١٥٠ .
٣٩- . م.ن : ٢٢ .
٤٠- . ديوان عروة : ٨٣ .
٤١- . شعر تابط شراً : ١١١ ، ومنتهى الطلب : ٩٥٢ والمفضليات : ١٨ وفيه : (عاذلتي ...) دون همزة.
٤٢- . ينظر : شعر تأبط شراً : ٣٩ .

http://abu.edu.iq

وأجملَ موت المرء – إن كان ميتاً ... ولابد يوماً موته وهو صابرُ
وخفّض جأشي أنّ كلّ ابن حرةٍ ... إلى حيث صرتَ لا محالةَ صائرُ
وإن سوامَ الموتِ تجري خلالَنا ... روائحُ من أحداثِهِ وبواكرُ

فالشاعر الذي خبر الحياة لا يرتضي لنفسه أو لغيره – وهو في معرض رثاء الشنفرى– أن يموت ميتة لا تستحق الذكر، فإن ما هدّأ من روعه هو أن كل الناس سوف يموتون، فالأحرى بالعاقل أن يختار ميتة العز على ميتة الذل من أجلٍ ذلك مدح الشعراء الصعاليك المغامرة معبرين فيها عن المروءة التي يتحلون بها فإن تلك المغامرة لم تك يوماً طيشاً بل من أجل إشباع الفقراء الذين لا حول لهم . يقول عروة بن الورد[٤٤] :

لحا الله صعلوكاً إذا جن ليله ... مصافي المشاش ألفاً كل مجزرِ
يعد الغنى من نفسه كل ليلةٍ ... أصاب قراها من صديقٍ ميسرِ
ينام عِشاءً ثم يصبح ناعساً ... يحث الحصى عن جنبه المتعفرِ
يعين نساء الحي ما يستعنه ... ويمسي طليحاً كالبعير المحسّرِ
ولكن صعلوكاً صفيحةَ وجههِ ... كضوء شهاب القابس المتنورِ
فذلك أن يلقَ المنيةَ يلقها ... حميداً وإن يستغنِ يوماً فأجدرِ

هذه هي مروءة الصعاليك، التي ترجمها سيدهم عروة بن الورد في وصفه للصعلوك في لوحة شعرية جميلة ينام على الترابِ والحصى وعينه يقظة انتظارا للحظات تحقيق معنى الإنسانية في نظره وهل من معنى أنبل من أن تغيث نساءً جائعات وهنا تبدو مفارقة الحكمة في شعر الصعاليك وطرافتها .

المبحث الثالث : حكمة النجاة من الموت، والإغارة .

على الرغم مما يتصف به الصعلوك من شجاعة وجرأة إلا أنه يؤثر الحياة على الموت، والنجاة على المهلكة وقد يعود ذلك إلى ظروف حياته وانفصاله عن القبيلة لذا توجهت أعرافه بمغايرة تامة لأدبيات المتن الاجتماعي المتمثلة بأعراف القبيلة وتقاليدها المفارقة لقوانين الفرد المنفصل والمفرد "إن عمل القبائل الجماعي منظم وعمل الصعاليك فردي لا نظام له"[٤٥] .

إن الصعلوك جسدٌ متفرد تمثل له النجاة مكسباً آخر في سجله الشخصي، لذا تمثل أحاديث الفرار وصوره ظاهرة واضحة وسمه من سمات شعره، فهذا تأبط شراً يدافع عن فراره وعن جسده مؤجلاً فناءه لتتراكم في صالحه أزمان تشكل تأريخاً شخصياً يقف بديلاً لأيام ووقائع وتواريخ حطمها الصعلوك بمفارقته لكل ما يتصل بالقبيلة إذ قال[٤٦] :

ولم أنتظرْ أن يدهموني كأنّهم ... ورائيَ نحلٌ في الخليّةِ داكنا
ولا أن تصيبَ النافذات مقاتلي ... ولم أك بالشد الذليق مداينا
فأرسلت مثنياً عن الشرّ عاطفاً ... وقلت تزحزح لا تكونَنَ صائناً

فالصعلوك مفتخر بحيله وحكمه في الفرار والنجاة والخلاص، فالمقاتل فرد (لم أنتظر) والأعداء كثيرون (أن يدهموني) أوهم كالنحل كثافة وهو فرد موتور بهذه المسافة المتدرجة بين الواحد والجماعة والواحد

٤٣- . شعر تأبط شراً : ٨٦، والأغاني : ٨٨/٢١ وفيه "وأجمل موت المرء إذ كان ميتاً" .
٤٤- . ديوان عروة : ١٥ .
٤٥- . تاريخ الشعر السياسي : ٣٥ .
٤٦- . شعر تأبط شراً : ١٤٥، والأغاني ٢١٣/١٨ .

http://abu.edu.iq

وكثافة النحل، تفعل حكمة تأبط شراً فعلها الشعري على مستوى الدهاء والمكيدة أو على مستوى الشاعرية .

وأضفى ابو خراش على فراره مشروعية، حتى جعله مذهباً في النجاة، فهو يفر ليس لأنه جبان بل لأنه مناور، يوفر بأي طريقة سبل نجاته وبقائه حياً فهو يرى في الثبات فرصة لإهلاكه، لذا يكون حريصاً على تبديد هذه الفرصة ومنح جسده امتدادا جديداً بالمكان والزمان إذ قال[٤٧] :

فإن تزعمي إني جبنت فإنني ... أفر وأرمي مرة كل ذلك
أقاتل حتى لاأرى لي مقاتلاً ... وأنجو إذا مافضن بعض المهالك

إن أحاديث الفرار ظاهرة واضحة في أخبار الصعاليك الهذليين إذ تأخذ في بعض مناحيها شكل القصة بما فيها من سرد وحوار حتى ((إن التحليل النفسي لشخصية الهارب وتصويره الدقيق لخوفه وذعره من الموت وحرصه على الحياة يجعلها قريبة جداً من القصة النفسية))[٤٨].

وتقف الإغارة في صدارة الوسائل التي يبني عليها الصعاليك اقتصادهم لذا يعد الاهتمام بتفاصيلها من حذق وحذر ومعرفة جيدة بالمكان ومن أسلحة وخيول من روافد الخبرة التي يؤدي تراكمها إلى أنتاج الحكمة والمعرفة اللازمين لإنجاح الإغارة، فتكون الحيلة وسيلة للشخص الحازم الذي يستعين بها في مواطن الخطر، وهو الذي يعمل للأمر حساباً قبل أن يؤخذ على حين غرة، وعلى المرء أن يكون مرناً في تصرفاته، لتكون الحكمة وسيلة عبور ونجاة وانتصار يقول تأبط شراً[٤٩] :

إذا المرء لم يحتل وقد جد جده ... أضاع وقاسى أمره وهو مدبر
ولكن اخو الحزم الذي ليس نازلاً ... به الآمر الا وهو للحزم مبصر
فذاك قريع الدهر ما كان حولاً ... إذا سَدّ منه منخر جاش منخر

ويكون اختيار المكان أو المرقب المنيع جزءاً من خبرة الصعلوك، في انجاز مهمته في الإغارة، وفي مفاجأة أهدافه . فهذا الشنفرى يقدم لوحة رائعة لمرقبة منيعة عالية يعجز دونها الصياد الماهر الخفيف الذي يخرج بكلابه المضرأة للصيد . يصف كيف أرتقاها متربصاً وحذر يقول الشنفرى[٥٠] :

ومرقبة عنقاء يقصر دونها ... أخو الضروة الرجل الخفي المخفف
نمبت إلى أدنى ذراها وقد دنا ... من الليل ملتف الحديقة أسدفَ

ومرقبة تأبط شراً ذات تجاعيد، كأنها عجوز شمطاء عليها ثياب بالية يقول تأبط شراً[٥١] : (من الطويل)

ومرقبةٍ يا أمّ عمرو وطمرةٍ ... مذبذبة فوق المراقب عيطل
نهضت اليها من جثوم كأنها ... عجوز عليها هدمل ذات خيعل

إنَّ اختيار المراقب بهذا العلو والبعد عن الخطر يعود فيما يعود إلى مدى خبرة الصعلوك وحكمته وربطه بين هذه المراقب والعجوز الشمطاء، بما تحمله من تجاعيد تلف الصعلوك بين طياتها، والتي تتموج بين أشكال الصخور والتفافها على وجه الحقيقة، وبين عمر هذا المرأة وما تدخره من خبرات تكدست تجاعيد على مر السنين .

٤٧- . ينظر : الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي : ٢١٥ .
٤٨- . البناء الفني في شعر الهذليين /٢٤٧ .
٤٩- . شعر تأبط شراً : ٨٩، الأغاني : ٢١/٢١٥ .
٥٠- . ديوان الشنفري الأزري : ٣٧ .
٥١- . الأمالي ٣٨/١ .

http://abu.edu.iq

ويكون السلاح عند عمرو بن براقة أحد أركان ثلاثة يعتمد عليها من يريد تجنب المظالم في مجتمع الحرب يقول عمرو بن براقة[٥٢] :

متى تجمع القلب الذكي وصارماً وانفــاً حميــاً تجتنبــك المظــالم

إذ يكون الذكاء، وما ينجم عنه من حسن تصرف مع سلاح الصعلوك الملازم له، وقوة العزيمة وعلو الهمة هو ما يحقق للصعلوك رغبته وأهدافه .

الخاتمة

- يكاد يتطابق مدلول الحكمة لغويًّا واصطلاحًا، وتتفق جميع المعجمات اللغوية منذ العين وحتى لسان العرب في المعاني المتقاربة .
- إن تقليبات مادة " حكم " تقترب أو تكون في دائرة واحدة للمعنى المراد .
- اجتمعت عوامل عدة منها الاقتصادي والاجتماعي والسياسي لقيام ظاهرة الصعاليك .
- لابد لمن يتصدى لأي ظاهرة عند جماعة الصعاليك من أن ينظر إليها من زوايا مختلفة سواء كان نظره لجانب موضوعي أو فني إذ ان أختلاف الظروف ينتج دائماً أدباً وقيماً واعرافاً مختلفة .
- إن الحكمة عند الصعاليك جاءت مفارقة لعادات وأعراف وقيم وحكم القبيلة فهم (الصعاليك) حكماء فيما يحفظ ذواتهم الفردية وليست الجمعية مثلما هي عند أفراد القبيلة .
- تبين من خلال البحث أن أهم حكمهم قد انطوت ضمن الخلاص من الفقر والنجاة من الموت وحكم المروءة والإغارة .
- يرى الباحث أن وعي الصعاليك جاء مخالفاً قيمياً لما ترسب في الذاكرة الجمعية للمتن القبلي فإن كان الفرد في القبيلة جزءاً من مشروع جمعي في حياته ومماته فإن الصعلوك على الضد من ذلك إذ يفارق بتجربته كل ماهو سائد وثابت فهو في ذلك يحتفي بوجوده الفردي وبجسده الذي يمثل لديه الكون لذا إحتال بكل الوسائل للحفاظ عليه فهو يهرب من المواجهات المؤذية ماتسنى له ذلك ولا يعني هذا الهروب أنانية مطلقة بل هي حكمة أملتها عليه ظروف حياته كونه منفصلاً وجد في الحفاظ على جسده مشروعاً من أجل الإنسانية المعذبة .

المصادر والمراجع

القرآن الكريم .

١. الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني، نسخه عن طبعة بولاق الأصلية منشورات دار الفكر للجميع، ١٩٧٠ بلا تحقيق .
٢. الأمالي (وذيل الأمالي والنوادر) ابو علي إسماعيل بن القاسم البغدادي القالي (ت٣٥٦هـ)، ط١، مطبعة السعادة، ١٩٥٣م .
٣. البناء الفني في شعر الهذليين، دراسة تحليلية، د. اياد عبد المجيد إبراهيم، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ٢٠٠٠ م .
٤. تاريخ الشعر السياسي، أحمد الشايب، ط١، القاهرة، ١٩٤٢ .
٥. الحكمة في شعر المتنبي، د. حسين علي قرعاوي، ط١، دار عمار، عمان، الأردن، ١٩٨٦م .

٥٢- . الأمالي : ١٢٢/٢، ومنتهى الطلب : ٣١٥ .

http://abu.edu.iq

٦. الحياة العربية من الشعر الجاهلي، الدكتور أحمد محمد الحوفي، ط٤، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها، مصر، مزيدة ومعدلة، د.ت .
٧. ديوان جرير، دار صادر، بيروت، د.ت .
٨. ديوان الشنفرى، عمرو بن مالك الأزدي، ت٥٢٥م، ضمن الطرائف الأدبية، تحقيق عبد العزيز الميمني، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٧م .
٩. ديوان عمر بن الورد بن زيد العبسي، ت٥٩٤، تحقيق عبد المعين الملوحي، دمشق، ١٩٦٦ .
١٠. شرح ديوان الأعشى، حسن إبراهيم جزيني، ط١ دار الكاتب العربي، بيروت، ١٩٦٨ .
١١. شعر تأبط سراً، تحقيق : سلمان داود القرغولي وجبار تعبان جاسم، ط١ مطبعة الآداب، النجف الأشرف، ١٩٧٣ .
١٢. الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، د . يحيى الجبوري، دار التربية، ١٩٧٢ .
١٣. الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، د. يوسف خليف، ط٢، دار المعارف بمصر، بلا تاريخ .
١٤. الشعرية العربية، أدونيس، ط١، دار الآداب، بيروت، ١٩٨٥ .
١٥. في الشعرية، كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، د.ت .
١٦. قاموس الفلسفة، ديديه جوليا، نقله الى العربية د. فرانسوا أيوب وإيلي نجم وميشال ابي فاضل، مكتبة أنطوان، بيروت، دار لاروس، باريس، ط١، ١٩٩٢ .
١٧. كتاب التعريفات ؛ علي بن محمد علي الحسيني الجرجاني الحنفي، ت٨١٦ هـ، تحقيق : نصر الدين تونسي، شركة القدس للتصدير، القاهرة، ط١، ٢٠٠٧ .
١٨. كتاب العين، لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق، د. مهدي المخزومي و د. إبراهيم السامرائي، ط١، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٩٨٨.
١٩. لسان العرب، ابن منظور، ت٧١١هـ، تحقيق عبد الله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، مصر، د.ت .
٢٠. مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، ناصر الدين الأسد، دار المعارف، مصر، ١٩٥٦ .
٢١. المعجم الفلسفي، د. جميل صليبا، ط١ دار ذوي القربى، مطبعة سليمان، ١٣٨٥هـ .
٢٢. معجم القاموس المحيط، مجد الدين يعقوب الفيروز آبادي (ت٨١٧هـ)، رتبه ووثقه خليل مأمون شيما، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط٢، ٢٠٠٧ .
٢٣. المعجم المفصل في الأدب، الدكتور محمد التونجي، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٩م .
٢٤. معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسن أحمد بن فارس بن زكريا (ت٣٩٥هـ) تحقيق : عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٧٩م .
٢٥. المفضليات، مختارات العلامة ابي العباس المفضل بن محمد الضبي، ت١٧١هـ، تحقيق : د. عمر فاروق الطباع، شركة الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط١ : ١٩٩٨ .
٢٦. منتهى الطلب من اشعار العرب، تأليف ابي غالب محمد المبارك بن ميمون البغدادي، ت٥٨٩هـ، اعتنى به محمد مصطفى محمود زهران، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٨ .
٢٧. موازنة بين الحكمة في شعر المتنبي والحكمة في شعر أبي العلاء المعري، د. زهير صبري الخواجا . منشورات دار الأصالة للثقافة والنشر والإعلام، الرياض، ط، ١٩٨٢م .
٢٨. النقد الأدبي الحديث، د. محمد غنيمي هلال، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٧٧ .

http://abu.edu.iq